بحوث ودراسات

لماذا إسلامية المعرفة؟	طه جابر العلواني
نحو منهجية أصولية للدراسات الاجتماعية	لؤي صافي
دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية	عبدالمجيد النجار
الإسلام والتاريخ العالمي	خالد بلانكنشب

لماذا إسلامية المعرفة؟

لماذا المجلة؟

طه جابر العلواني*

لا شك في أن الساحة العربية تعج بالعديد من المجلات الأسبوعية والشهرية والفصلية والسنوية وغيرها، وبعض تلك المجلات فكرية، وبعضها أدبية، والبعض الآخر مجلات فنية، وهناك عديد من المجلات الثقافية، وكثير منها نافع مفيد، يسد ثغرة أو يزجي فكرة، ولكن ليس من بينها –فيما نعلم– مجلة واحدة ناطقة باسم إسلامية المعرفة التي أصبحت خلال السنوات القليلة الماضية تمثل تياراً معرفياً ومنهجياً إسلامياً متميزاً في كثير من الساحات العربية والإسلامية، بل لقد تجاوزت هذه الساحات إلى ساحات دولية، وصارت تناقش كقضية هامة من قضايا الفكر والمعرفة والمنهج في كثير من المحافل المعنية برصد وتتبع الأطروحات ذات الخصائص المتميزة، التي يمكن أن تشق طريقها إلى ميادين التغيير الاجتماعي القائم على المعرفية والمنهجية. لقد قدمت إسلامية المعرفة نفسها إلى قراء الإنجليزية على صفحات "المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية The American Journal of Islamic Social Science (AJISS)" كما قدمت نفسها بالعربية –على استحياء– من خلال مجلات صديقة عديدة كان من أبرزها مجلة "المسلم المعاصر"، ولكن آن لها بعد أن جاوزت اثني عشر عاما –كما قدمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي– أن تأتي الناس سافرة بوجهها، معبرة عن نفسها، قائمة على سوقها، ناطقة بلسان مقالها، لا بلسان حالها. فكان أن قرر مجلس أمناء المعهد إصدار المجلة العربية "إسلامية المعرفة" لتمثل منبراً للتعبير والحوار والبلورة لجوانب هذه القضية الخطيرة بلغة الضاد– لغة التجديد والاجتهاد، ولتمثل في الوقت ذاته مرجع الطالبين والباحثين في القضية الحيوية.

---

* الدكتوراه في أصول الفقه من جامعة الأزهر، 1973. رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية، ورئيس المجلس الفقهي بأمريكا الشمالية.

فالمعهد العالمي للفكر الإسلامي قد جاوزت مسيرته اثنتي عشرة سنة، وتجمعّ لديه من الخبرات والتجارب والتراكمات البحثية والمعرفية ما لم تعد قنوات النشر المعتادة كافية لاستيعابه، وبدأ كثير من كتاب المعهد وباحثيه يبحثون عن قنوات للنشر خارجه، وصار للمعهد من المكاتب والفروع عدد كبير بعضها قد تجاوز في حجم نشاطه، وكثرة المتعاملين معه من الجامعات والأساتذة وطلبة الدراسات العليا حجم نشاط مقره الرئيس. وصار للمعهد –بفضل الله– من الأصدقاء والمتعاونين آلاف، كلهم يؤمن بقضيته ويحرص على دعمها وتقويتها، ومساعدته على الانطلاق بها إيماناً منهم بأن مدخل التغيير الفكري القائم على المعرفية والمنهجية هو المدخل الفعال، والمنطلق المؤثر في إحداث النقلة الحضارية النوعية المنشودة لهذه الأمة، ذلك لأن مداخل التغيير الأخرى السياسية والحداثية والانقلابية والثورية كلها قد باءت بالفشل الذريع حيث أنها، أعني المداخل الأخرى، تجاوزت تغيير ما بالأنفس من أفكار ومفاهيم وقيم إلى تغيير ما يحيط بها من مؤثرات سياسية واقتصادية وسواها، وقاعدة التغيير القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11).

منطلق التغيير

إن أهم منطلقات التغيير المنطلق الذي يقوم على رؤية كلية سليمة للكون والإنسان والحياة، وعلاقتها بخالقها في إطار ثلاثية التوحيد والاستخلاف والتسخير. وهذه الرؤية لا يمكن أن تنبثق إلا من عقيدة راسخة كاملة وصحيحة، إذ عن عقيدة كهذه، ورؤية سليمة منبثقة عنها ينبثق التصور الإسلامي بكل خصائصه المعروفة. وعليها تقوم دعائمه ومقوماته، والتغير باتجاه الأسوأ يبدأ بتغيّر المعتقد وانحراف الرؤية الكلية فتختل قاعدة التفكير السليمة، وتضطرب التصورات، وتختلط المفاهيم، وينهار سلم فقه الأولويات، وتمتلئ الأنفس بعوامل التغيير، فيتغير ما بالقوم من دواع ودوافع ويتغير ما حولهم وتضطرب أمورهم. وهذا هو ما حدث فعلاً للأمة المسلمة، والمتتبع لأدوار رقيها أو هبوطها يجد ارتباط كل من الرقي والهبوط بتغير ما في الأنفس والعقول والقلوب وثيقاً جداً.

لماذا إسلامية المعرفة؟

منذ أن برز التحدي الأوروبي وأدركت الأمة عجزها عن استيعابه، ومحاولات المسلمين لم تتوقف للرد على ذلك التحدي وإعادة البناء الإسلامي. وقد فشلت محاولات اللحاق بأوروبا والتحديث والتصنيع على غرارها مثل محاولة السلطان محمود الثاني (1784م–1839م) على مستوى السلطنة وقد حكم اعتباراً من عام (1808م–1839م)، ثم المحاولات الإقليمية مثل محاولة محمد علي (1769م–1849م) في مصر.

كما لم تحقق محاولات التغيير والإصلاح العقيدي الذي لم يربط بين العقيدة والرؤية والبناء الفكري، وكذلك الإصلاح السياسي التي نهضت بها حركات عديدة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ومن أبرزها حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة، وحركات أخرى في أفريقيا وفارس وأفغانستان والهند، وقد آل رصيد تلك الحركات– كلها– إلى حركة الإصلاحيين في أواخر القرن الماضي وتصدى السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ عبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده وعلماء إيران والعراق والهند لإحداث التغيير في هذه الأمة فنجحت وتراجعت، لكن الحصيلة النهائية لم تكن في صالح التغيير إلى الأحسن أو الإصلاح والتجديد –كما سيتضح فيما بعد– وتسلمت الراية الحركات الإسلامية المعاصرة، وبدأت تصوغ خطابها ليكون خطاباً شاملاً مستفيداً من تراث حركات الإصلاح وموظفاً لرصيدها، ولا تزال الأمة بعيدة عن التغيير الحقيقي، وفشلت أفكار المقاربات والمقارنات، وانتهت محاولات التحديث، لا بالفشل في نقل التحديث والتصنيع وبناء الدولة الحديثة القوية، بل بهدم البنى التحتية التي كانت قائمة في مجتمعاتنا وتدميرها دون بدائل، مما زاد في مآسي الأمة ومعاناتها. وليتبين حجم التراجع الذي تتردى الأمة فيه، والحاجة إلى برنامج إصلاح وتجديد وتغيير آخر أود أن أقتبس من السيد جمال الدين الأفغاني فقرات من حديث له طويل كان نشره عام 1300هـ/1883م، يقدم فيه لوحة عن الأوضاع العامة للأمة بما أصابها من تحلل وتراجع على جميع المستويات.

قال الأفغاني:

"الإنسان إنسان بعقله وبنفسه. لولا العقل والنفس لكان الإنسان أخس جميع الحيوانات، وأشقاها، لأنه في حياته أضيق مسلكاً، وأصعب مجازاً، وأوعر طريقاً منها. قد حفت به المكاره، وأحاطت به المشاق، واكتنفت به الآلام. لا يمكنه أن يقوم بمعاشه وهو منعزل عن أبناء نوعه، ولا يطيق الحر، ولا يتحمل البرد، ولا يقدر على الذود عن نفسه. وليس له من الآلات الطبيعية ما يثقف به معيشته، وهو محتاج في ضروريات حياته،

ومفتقر في الكمال فيها إلى الصناعة، ولا يمكن الحصول عليها إلا بإحالة الفكرة والتعاون مع من يشاركه في العقل من النوع البشري.

والعقل ما به تُسَنْبَط المسبّبات من أسبابها، ويُستدل بالعلل على معلولاتها، ويُتنقل من الملزومات إلى لوزامها، وتستكشف الآثار حين ملاحظة مؤثراتها، وتعرف العواقب ضارها ونافعها، وتُقدّر الأفعال بمقاديرها، على حسب ما يمكن أن يطرأ عليها من الفوائد والخسائر في عاجلها وآجلها. ويتميز الحق من الباطل في الأعمال الإنسانية نظراً إلى عواقبها. وإن العقل هو الهادي إلى منهج السعادة ومنهج الأمن والراحة، والنفس هي منشأ أخلاق كريمة، وأوصاف عقلية، هي قوام الاجتماعات المدنية والمنزلية، وأساس التعادل في المعاملات، وميزان التكافؤ في المؤازرات، ومقياس التوافق في المعاونات، ولا يمكن التآلف بين القوى المتفرقة، لاقتناء ما تقوم به حياة الإنسان إلا بها، ولا تلتئم أهوية النفوس المختلفة لاكتساب ضروريات معاشها إلا بسببها، وهي التي تجعل الأفراد الإنسانية، مع تضاد طبائعها، بمنزلة شخص واحد يسعى بأعضائه المتخالفة في أشكاله وجوارحه، المتباينة في هيئاتها، إلى مقصد واحد لا يمكن الوصول إليه إلا باستعمالها، بحركات قد اختلفت مع وحدة جهتها أو ضلعها، وسيادة الأمم الغابرة والحاضرة هي من أخص نتائجها، لأنها لم يمكن حصولها إلا باتفاق كلمة آحادها، واجتماع آراء أفرادها، ولا تتفق الكلمة ولا تجتمع الآراء إلا بالتكافؤ في المساعي، والتوازن في تحمل المشاق، والاشتراك في المنافع، والمساواة في الحقوق، والتعادل في التمتع بثمرات الأعمال، بلا تفاضل ولا استئثار، وكل هذه وجودها وبقائها تحتاج إلى الأخلاق الكريمة والأوصاف العقلية، التي بها يعرف الإنسان حقه، ويقف عنده، لا تشتت أمة، ولا ذل قوم ولا اضمحلت سلطنة، ولا تفرقت جمعية، إلا بفساد أخلاقها، وتطرق الخلل في سجاياها... ويمكن أن يقال: إنّ بين كمال العقل وطهارة النفس وتخلقها بالأخلاق الفاضلة تلازما، لأن العقل إذا بلغ كماله يقهر الطبيعة، فحينئذ تسلم النفس عن سوراتها، وتخلص من عكر مذماتها، فتقاد للعقل مستسلمة له، خاضعة لحكمه، ويستعملها العقل على نهج الحق والعدل، وليست الأخلاق الفاضلة إلا أن تزن أعمالها بميزان العدل، ولا تحيد في هواها عن الصراط الحق.

وبعد هذه المقدمة، يمكن لنا أن نقول إنّ الشرق بعد ما كان له من الجاه الرفيع، والمقام المنيع، والسلطنة العظيمة، وبسطة الملك، وعظيم الشوكة، وكثرة الصنائع والبدائع، ووفور الأمتعة والبضائع، ورواج سوق

التجارة، وذيوع العلوم والمعارف، وشيوع الأدب والفنون، ما هبط عن جليل مرتبته، وما سقط عن رفيع منزلته، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه، ولا غلب الذل والاستكانة على عامريه، ولا تسلطت عليه الأجانب، و لا استعبدت أهله الأباعد، إلا لإعراض الشرقيين عن الاستنارة بنور عقولهم، وتطرق الفساد في أخلاقهم، فإنك تراهم في سيرهم كالبهائم، لا يتدبرون أمراً، ولا يتقون في أفعالهم شراً، ولا يكدّون لجلب النافع، ولا يجتنبون عن الضار."

وبعد أن يبين كيف آل غياب العقل بأهل المشرق من المسلمين إلى أن يتآمر بعضهم على بعض فيتحالف المسلم العثماني مع الروسي النصراني ضد المسلم الأفغاني ويحارب المسلم الإيراني أخاه العثماني وهكذا إلى آخر مسلسل التنازع والتناحر الذي أذهب ريح الجميع، يواصل جمال الدين الأفغاني فيقول:

"... وكان عليهم، اهتداء بنور العقل وسلوكاً في مسلك السياسة الحقة أن يلاحظوا الجامعة القوية التي بينهم وبين السلطنة الإيرانية، فيتفقوا معها في كبح شره الروسية وإضعاف قوتها أمنا من غوائلها وحذراً من آفات مطامعها. وإنهم، أي العثمانيين، جبهوا سفير (تبو سلطان)، سلطان (ميسور)، بالرد حين عرض عليهم من طرف سيده استبدال البصرة ببعض البلاد الهندية التي كانت بحوزته، فامتعضوا من هذا الطلب، وردوا السفير خائباً، وكان غرض (تبو سلطان) من طلبه هذا، أن يكسر سورة الإنجليز، ببسط السلطة العثمانية في الهند وتمكنها منها، وذهل العثمانيون، تهاونا منهم في العلاقات التامة التي بينهم وبين الهنديين، وأن سلطتهم لو امتدت إلى تلك الممالك لدخل جميع حكامها بلا معارضة تحت لوائهم، وقدروا حينئذ على قدع الحكومة الإنجليزية عن تطاولاتها في الهند، وسدوا عليها طرق فتوحاتها في المشرق. وما شعروا، تساهلاً في السياسة، وتغافلا عن منهج العقل، أن بسطة الحكومة الإنجليزية في آسيا توجب تحكمها في بلادهم، وطمعها في الاستيلاء عليها كما وقع الآن، حتى مكنوا عساكرها مدة طويلة من شق الأراضي المصرية، ذاهبة إلى أقاصي الشرق للتغلب عليها.

وإن شاه إيران (فتح علي شاه) –إرضاء للإنجليز– هدد الأفغانيين بالحرب، وقتما أردوا أن يزحفوا إلى الهند لانتزاعها من أيدي الإنجليز، ولو استنار الإيرانيون، وقتئذ، بنور عقولهم لانكشف لهم أن قوة الإنجليز في الهند إذلال لهم، وحظر على بلادهم، ولعلموا أنهم والأفغانيين غصنا شجرة الإيران، قد تشعبوا من أصل واحد،

ونشأوا في أرض واحدة، تجمعهم وحدة الجنسية وتؤلفهم الأخوة الحقيقية، لأنهم متساهمون في العز والشرف، ومتشاركون في الذل والهوان، وما فرقت كلمتهم إلا أوهام واهية نشأت عن الظنون الدينية، وليس منها في شيء، ولو راجع كل عقّله لرأى وجوب اتفاقهم تحت راية الوحدة استرجاعاً لمجدهم السابق وتدراكاً لما فاتهم بسبب الشقاق من الشرف والفخار وعلو الكلمة بين الأمم. وأن الأمير (دوست محمد خان)، أمير الأفغان، قد جعل بلاده –تعاميا منه– عرضة لهجمات الإنجليز، فإنه بعد المحالفة مع (رنجيت سنك) ومعاهدته على مقاومة الإنجليز، قد تركه اغتراراً بالمواعيد الإنجليزية في ميدان الحرب وحيداً. وتقهقر بعساكره، فانهزمت جيوش (رنجيت سنك). وتغلب الإنجليز على جميع أراضي البنجاب المتاخمة لأفغانستان. ولو استهدى المير (دوست محمد خان) إذ ذاك عقله، وسلك في سياسته سلوك بصير يتدبر أفعاله قبل أن يشرع فيها، لتحقق لديه أن صيانة بلاده عن هجمات الإنجليز إنما تكون بقاء الحكومة البنجابية حريزة، حتى تكون سدا مانعا بين أفغانستان وبين الحكومة الإنجليزية، فكان يدافع عنها كما يدافع عن حكومته.

وإن نواب البنجالة ونواب الكرناك قد مهدوا للإنجليز سبل دخولهم في الأراضي الهندية. وإن نواب لكهنوا أيد مقاصدهم في إذلال السلطنة التيمورية. وإن نواب دكن قد أعانهم على إبادة حكومة (تيبو سلطان) وإذلال راجة (برودة) وقهر الذين قاموا سنة 1857 لإنقاذ بلادهم ودفع شر المتغلبين عليها من الإنجليز. وكان هؤلاء –جهلاً منهم بمنافعهم وعمى عن نتائج أفعالهم المضرة– مكنوا الحكومة الإنجليزية، ثقة بمواعيدها، من الأراضي الهندية، وجعلوا على أعناقهم نير العبودية، وما عقلوا أن قوام كلّ بالآخر، وأن بقاءه قد نيط ببقائه، وان كلا للآخر بمنزلة العضو من الجسد. فإذا تمكن الداء من عضو، سرى في الجميع، ولزم منه انحلال البدن كله. والآن ترى الحكومة الإنجليزية، بعد استبعادهم وسلب أموالهم ونزع أيديهم عن الملك، تعارضهم في ديانتهم، وتزاحمهم في تجارتهم، وتعاقبهم على نياتهم، وتعاتبهم على أعمال آبائهم، وإن أهل بخارى فرحوا بتسليط الروسية على قوقند، والتركمان تبجحوا من غلبتها على بخارى، والأفغان والفارس قد سُرّوا من استيلائها على التركمان. وكل هذا غفلة منهم على المضار التي تنشأ عن قوة الروسية، وبسطة سلطتها في تلك الأراضي. وقد ألقاهم جهلهم بمصالح أنفسهم وإغضاؤهم عن الاستنارة بأنوار عقولهم في التهلكة، وأشرفوا كلهم بغرورهم على الزوال والاضمحلال.

إن مدحت باشا وأعوانه، لو نظروا ببصيرتهم إلى أركان سلطنتهم المتداعية إلى السقوط، وشعروا بهداية عقولهم أن دعائم حكومتهم كادت أن تنهد بما ألم بها من المصائب، وعلموا بتدبرهم أن البلايا تترصدهم من جوانبهم، لما أقتحموا غروراً وضلالة في خلع عبد العزيز وقتله، وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم وتغتنم هفواتهم. ولكنهم، اعتماداً على واهي آرائهم، واغتراراً بدسائس الحكومة الإنجليزية، قد جلبوا الهلاك والاضمحلال على أمتهم، ويظنون أنهم هم المصلحون.

وإن إسماعيل باشا، حبا بالاستقلال، وعمى عن نتائج أفعاله السيئة التي نشأت عن حرصه باسم الملك، قد ألقم الإفرنج جميع أموال مصر، وما استدانه من صرافي الأوروبا (أوربا) بالأرباح الباهظة، ثم سعى الإفرنج في خلعه عن الملك ونفيه عن الديار المصرية إرادة استملاكها، ووضع اليد عليها، ولو تروى في حالة الشرقيين، وتأمل فيما أصابهم من الذل والصغار، لأجل تفرق كلمتهم، لازداد خضوعاً لسلطانه، وسعى صيانة لنفسه في تشييد مباني سلطنته، ونزع عن قلبه حب الاستقلال، وعلم أن الذين لا يفترون عن السعي في فتح الممالك لا يمكن أن يساعدوه في مقاصده (...).

فقد ظهر، من كل من ذكرته من سير الشرقيين قدحاً في حالاتهم، أنهم ما سلكوا في سياستهم سبيل الرشد والهدى، وما استفادوا من عقولهم شيئاً، ولا تدبروا في عواقب أفعالهم ونتائج أعمالهم، ولا نظروا بنور البصيرة في حالهم ومآلهم، بل تاهوا جهلاً منهم بمنافعهم في بيداء الغواية، وحادوا عمى عن غاية مسيرهم في تيه الضلالة، حتى خربوا بأيديهم ديارهم، وأبادوا بسوء تصرفهم بلادهم، ومكنوا الأجانب بمساعيهم الفاسدة من رقابهم، وكان الواجب على أحفادهم، الذين احترقوا بنارهم، وتدنسوا بعارهم، أن يعتبروا بالمصائب التي جلبتها إليهم غفلات أسلافهم، وأن يتقوا البليات التي قادتها الغباوة إلى آبائهم، وأن يسعوا في جمع الكلمة، وأن يتحذروا من الشتات والتفرقة، ويجتنبوا الأغراض الشخصية، ويعرضوا عن دواعي الخطوات الوهمية، وينحوا عن مضال الاستبداد والاستئثار. ولكن تراهم لسبات عقولهم، يقتفون آثارهم ويتبعون أغلاطهم معرضين عن العقل وإرشاده جاحدين للحق وآياته، ارتفعت عنهم الأمانة، وفشت بينهم الخيانة، وانقطعت بينهم عرى الوداد، وانحلت عقدة الجنسية. كل ينظر إلى نفسه ويسعى لمنفعة شخصية، جهلاً منه أن سعادته منبثة في جميع آحاد الأمة، ولا يمكنه أن يفوز بها إلا بسعادة الكل، ولذلك فقد صاروا –بعد العبودية– فقراء لا

يملكون شيئاً، حائرين في معاشهم، ضالين عن رشدهم في مبدئهم ومعادهم. وكاد أن يقضي عليهم بذل أبدى وموت دائمي، يتلاشى جنسيتهم، وتتناثر جمعيتهم، ومع كل هذا، ما فاتهم أوان التدارك، ولا ضاق عليهم زمان، ولا سدت عليهم الأبواب، ولا انقطعت دونهم الأسباب، ولكن قد تمكن منهم القنوط، وغلب عليهم اليأس وفترت هممهم وضعفت عزائمهم، واستكت آذانهم عن استماع النصائح، وعميت أبصارهم من رؤية الحق، وقست قلوبهم عن الإذعان له، فتراهم، امتدادا في غيهم، يريقون دماء هداتهم، ويتبعون آراء غواتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله"[1].

نشرت هذه المقالة قبل ما يقرب من قرن وربع القرن، ترى هل يستطيع الناظر فيها من أبناء عصرنا هذا أن يلحظ تغيراً مهما في حال الأمة اللهم إلا إلى الأسوأ؟ إننا حين نرفع أسماء الحكام الذين نعى السيد الأفغاني عليهم أخطاءهم نستبدلها بأسماء الحكام والدول المعاصرة وكذلك البلدان، فسوف لا نجد أي شيء يمكن أن يلفت النظر ويحمل على الظن بأن هذا الحديث قد مرت عليه كل تلك العقود من السنين، بل أنه **يكاد يكون وصفاً دقيقاً لحال الأمة اليوم**.

إن استمرار حالة التردي والتفكك والتفسخ في أمتنا ليدهش العقلاء ويحير الحكماء!! لقد بلغت الأمة الحضيض السحيق الذي تتمرغ فيه الآن ولكننا لا ندري ما إذا كانت ستدحرج إلى ما هو دونه أو أسوأ منه، أو ستقف في تفكهها وتفسخها عند هذا الحد.

إن الاحتمال الأول هو الأرجح إن لم يتداركها الله برحمته. والذي يهمنا هو أن ندرك بعض الأسباب ونسلط الضوء عليها.

إن السبب الأهم –في نظرنا– أن محاولات الإصلاح والتجديد والتغيير التي سلكتها الأمة خلال الفترة المشار إليها قد عالجت أموراً وفاتتها أمور، وأن التجديد والإصلاح لم يأخذا مداهما الشامل ليحيطا بأسباب الأزمة المختلفة، ويهيئا الأمة للخروج التام منها. فانشغلت معظم حركات الإصلاح بمعالجة مظاهر الأزمة وما تنعكس عليه من آثار يومية ومباشرة. أما جذروها ومنابعها فلم تأخذ حظها من البحث والدراسة ثم المعالجة، وذلك لا يعيب تلك المحاولات ولا يقلل من شأن ما قدمته للأمة من خدمات ومكاسب، في مقدمتها

---

[1] جمال الدين الأفغاني: **سلسلة الأعمال المجهولة**، ص91–99، تحقيق وتقديم الدكتور علي شلش، طبع دار رياض الرئيس للكتب والنشر، لندن: 1987م.

المحافظة على هوية الأمة وانتمائها. ومن هنا تبرز الحاجة واضحة إلى محاولة إصلاحية معرفية منهجية تستطيع رصد سائر أسباب الأزمة ومنابعها إضافة إلى آثارها وانعكاساتها وتحاول أن تقدم للأمة منهاجاً سليماً لإعادة البناء قائماً على ذات الدعائم الأولى التي عليها قام بناء حضارة الإسلام في دورته الحضارية الأولى، ألا وهي: بعث إنسانية الإنسان بوصفه إنساناً مجرداً عن كل وصف لاحق لإنسانيته مدعواً للاشتراك مع كل إنسان في تأليف مجتمع تترابط عناصره برباط العقد الاجتماعي المفتوح لتعاقد الناس كلهم تعاقداً بريئاً من العنصريات والطبقات والإقليميات ليجعلوا السبيل إلى الاتفاق بينهم فيما افترقت فيه الأمم الشعور أولاً بأن الإنسان كفء للإنسان، ثم الشعور ثانياً بأن الحقائق كلها المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها في متناول الإنسان يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه العديدة المتدرجة، المستند بعضها إلى بعض في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشز. فالمدركات الغريزية وراءها المدركات الحسية، ثم المدركات الحسية وراءها المدركات العقلية، ثم المدركات العقلية تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها. فتوجيه هذه الدعوة على الشكل الذي وجهت به إلى الإنسان في مطلق إنسانيته هو الكفيل بأن يبرز الطاقة الإنسانية على أتم استعداداتها، وأن يمكن لها التصرف في قواها بدون تحديد.

وأساس الإدراك الذي شيدت عليه هو الكفيل بأن يذود عن كل طريق من طرق الإدراك ما عسى أن يحصل بينه وبين طريق آخر من التعاكس أو التعاضل حتى تنبعث كلها طلقاً إلى الغاية التي تحتمها قابليتها لا تتحجر دونها ولا تعثر في طريق الوصول إليها. وهكذا يحدث في الإنسان نوع من الأمن الداخلي والاستقرار الذاتي يجعله يطمئن إلى معالم إنسانيته –كلها– على نسبة واحدة: فعقله وعقيدته وحسه المادي، وعواطفه الغريزية كلها متجانسة متعاونة لا يخشى بعضها بعضاً، ولا يقطع أحدها سبيل الآخر. وكل ذلك لا يتأتى من تخطيط بشري أو فكر بشري نسبي، بل ينبثق من عقيدة موحاة من الله العليم الحكيم، السميع البصير، وهكذا يوجد الإنسان الفاعل القادر على القيام بمهام الاستخلاف وأداء أمانة الابتلاء. فليس المسلمون بحاجة لاستعادة فاعليتهم إلى **تكوين الدين من جديد**، لكنهم في حاجة إلى الوعي المعرفي والمنهجي الذي يمكنهم من توليد الإرادة والقدرة والعزيمة والفاعلية من الدين، وإلى قدرة على تقويم مسيرة حياتهم العملية والسلوكية بأفكار قائمة على الدين.

فالانطلاقة الحقيقية والاستجابة لدواعي **الإصلاح والتجديد** لا بد من أن تبدأ بتحقيق إنسانية الإنسان، وبناء الأمن الداخلي في ضمير الفرد المسلم، لتأتلف فيها مدراكه الإنسانية كلها، ويتجاوز الإنسان بذلك ويلات الحيرة والاضطراب، وتنازع الأفكار والمعتقدات والعواطف، ويسود السلام بين المعقولات والعقائد المنقولات، ويتحقق الانسجام الواعي بين الروحانيات والماديات، **وتنطلق قوة النظر** أو داعيته لتسير في الأرض، وتقرأ في الكون بانطلاق تام، فإذا أوشكت أن تحتار وتضطرب في حقيقة المقصد، أو طبيعة الطريق جاء الوحي يسدد ويرشد، ودُعي الإنسان إلى قراءته ليصح ويهتدي، فيجمع الإنسان ذاته – آنذاك – بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون. ويكون الوحي المعين والمثبت للإنسان والهادي الأمين له في قراءته في الكون، وهكذا يستعيد الإنسان قدرته وفاعليته ويحقق انطلاقه، ويجد الإنسان نفسه قادراً على الإنجاز الحضاري دون أن يستبد به الشعور بمطلقه الذاتي.

إن **محاولات التجديد** التي حدثت خلال الفترة المشار إليها انطلقت معظمها من مسلمات كان عليها أن تراجعها بدقة، فقد ظنت بعض حركات التجديد والإصلاح أن تراثنا على مستوى الفكر والمنهج والعقيدة والشرعة والمعرفة كامل وأنها لا تحتاج إلى مراجعة شيء منه، ويكفيها أن تضع أيدي الأمة على تراثها، وتنبهها إلى كنوزه وجواهره فتجد فيه كل ما تريد باعتبار أن الأمة كانت بخير في فترات إنتاج ذلك التراث وتداوله، ولم تكن حالتها بالشكل الذي هي عليه الآن. وإذن فكل ما يلزمها هو أن تنقل الصناعات والتقنيات المادية التي تحتاجها من الغرب، وتتشبث بتراثها كما هو لتحقق النقلة الحضارية المطلوبة، وبعض تلك الحركات ظنت أن المطلوب هو القيام ببعض المراجعات التراثية، وتجديد بعض أنواع التراث، وإعادة إنتاجه، وتعليمه وإيجاد الوعي به ليتحقق المطلوب

وبعضها قد اعتبر مهمة التجديد والإصلاح ميسرة إذا ما تمّ التمكن من القيام بتفسير أو تأويل كثير من أطروحات التراث بحيث يقارب بها الفكر المعاصر أو يقارنه فإذا تم هذا فإن عجلة التغيير ستدور.

ومع أن الجميع يرددون مقولة الإمام مالك الشهيرة: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها. ومع ظهور هذا الذي صلح به أولها غير أن الرجوع إلى **منهجية القراءة وإعادة بناء المدارك الإنسانية بقراءة الوحي والكون لم يأخذ حظه اللائق به من حركات الإصلاح والتجديد**، والذي تنبهوا إلى وجوب انطلاق

حركات التجديد من إعادة قراءة القرآن الكريم واجهتهم جملة من المشكلات: مثل علاقة القرآن المجيد ببيئة الخطاب الأول والتنزيل، وعلاقته بالعلوم التي صيغت حول النص، وعرفت **بعلوم القرآن** مثل علم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وأسباب النزول والتفسير وغيرها: فان هناك فهماً وفكراً تاريخيا ومركبا ثقافيا قد اسقط نفسه على نصوص القرآن الكريم، وكون فهماً له يستمد حجيته من مقومات عديدة، مكنته من ربط الكتاب الكريم بذلك الفهم التاريخي، وجعلت أي فهم مغاير لذلك الفهم موضع شبهة واتهام بأنه فهم تأويلي أو فردي أو لا يحتج به.

وبذلك لم يعد بمقدور حركات التجديد أن تدرك بأن عليها منذ البدء أن تصل إلى معرفة منهج لقراءة القرآن المجيد كما لو أنه لم ينزل إلا عليها وفي عصرها بحيث تتمكن من التعامل مع المتغيرات النوعية والجذرية في الفكر والمنهج والمعرفة والحياة تعاملاً ينطلق من القرآن ذاته، وإلى مرجعيته يعود. إذ أن هذه الأسئلة والتحديات التي تطرحها الحضارة العالمية الراهنة لا يمكن الإجابة عن جلها باجتهاد بشري لا مستند له إلا القياس على أقوال الماضين، والتخريج على مذاهبهم، بل لا بد للإجابة عليها من الرجوع إلى القرآن المجيد، فهو –وحده– الكفيل بتقديم ذلك النوع من الأجوبة والحلول الشافية المعجزة.

وليس المطلوب **قراءة جديدة** للقرآن الكريم تعتمد على المقاربة أو المقارنة أو التأويل، بل لا بد من تلاوة تستنطق القرآن ذاته إجابته الشافية وحلول لتحديات وأسئلة كل عصر وجيل باعتباره الكتاب المنزل تبياناً لكل شيء إلى يوم القيامة، وحفظه وعصمته من التبديل والتغيير وكماله وتمامه وإطلاقه أهم مسوغات ختم النبوة، وتوقف النبوات.

إنه لا يعتبر **تجديداً للدين أن نجدد تراث أسلافنا** الذي يمثل خلاصة فهمهم وفكرهم في الدين، كما لا يعتبر تحديثاً تقليد الغرب ومتابعته في خطواته. بل يستمد التجديد حقيقته من إعادة تشكيل العقل المسلم ووصل ما نقطع بينه وبين كتاب الله باعتباره المصدر المنشئ الوحيد مع الكون للفكر والمعرفة والعقيدة والشريعة والمنهاج. وكذلك بينه وبين سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مع سائر معطيات عصر التنزيل والنبوة، باعتبار السنة والسيرة هي المصدر الوحيد المبين والمفسر –على سبيل الإلزام– للكتاب الكريم.

ومن هنا كانت **إسلامية المعرفة** قاعدة من أهم قواعد تجديد الدين، وإعادة بناء الأمة القطب، وإنتاج المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر.

إنّ **إسلامية المعرفة** تمثل البعد الغائب عن مشاريع التجديد، أو البعد الذي لم ينل من عناية مشاريع التجديد والإصلاح ما يستحقه. فإذا كرس المعهد نفسه للوقوف على هذه الثغرة، والعمل على استحضار هذا البعد الضروري، فليس في ذلك افتئات على أي أحد فرداً أو جماعة أو حركة، بل هو مرابطة على ثغرة يتوقف على حمايتها والمرابطة عليها، سلامة سائر الثغور الأخرى.
وإذا كانت الحركات والمؤسسات الأخرى والتيارات الإسلامية الموازية قد شغلتها همومها اليومية وتحدياتها – وهي كثيرة– فيفترض فيها أن تحمد الله تعالى أن قيض لهذه الفريضة من يقف عليها، فعليها أن تعين وتعزز وتبارك وتسدد وترشد لتستفيد بالجهد المبذول والنتائج المرتقبة ولو بعد حين.

لقد فشل مشروع **الحداثة أو التحديث** في إطار التبعية للغرب، وكاد يسلم الراية بنفسه لفصائل **الصحوة الإسلامية** كما أطلقت عليها الدوائر الغربية في مستهل الثمانينات. ولكن الصحوة ظلت في معظم الأنحاء مشغولة **بالامتداد والانتشار الأفقي**. وفي بعض الأماكن اعتمدت على تراث الإصلاحيين التجديدي حتى استهلكته ثم تلفتت يمنة ويسرة فإذا بعوائق التراث لا تقل خطورة عن عقبات المعاصرة، وها هي الصحوة قد بدأت مسيرة الفتور في معظم الأماكن، بل لقد بدأت مرحلة تراجع في أماكن أخرى، وذلك على خلاف سنة الله في رسالات الرسل التي لا تتراجع بعد فترة اندفاعها الأولى حتى تبلغ أهدافها. وفي ظل هذا التراجع بدأت عمليات تلميع ونفض غبار عن مشاريع **الحداثة خاصة اللادينية منها**، وفجأة وجد الغرب نفسه حليفاً من جديد لأيتام الماركسية واللينينية وأمثالهم، فصار ينفخ فيهم، ويمنحهم قبل الحياة ليواجه بهم الصحوة أو المد الإسلامي، وبدأت الدراسات تتوالى حول مشروع الحداثة وأسباب فشله تمهيداً لقذف الأمة به من جديد ولو على سبيل إشغالها، وتدمير ما قد يكون بقي لها من فاعلية وواقعية.

إنهم يحاولون أن يقنعوا الأمة المغلوبة على أمرها بأن مشروع **التغريب التحديثي** قد فشل لأسباب ينبغي العمل على استئصالها أهما سببان:

السبب الأول: طبيعة العقلية المسلمة نفسها: فهذه العقلية بتكوينها وبنيتها، هي المسؤول الأول عن فشل المشروع الحضاري التغريبي في العالم الإسلامي... فالعقلية الإسلامية، بمكوناتها التراثية، لم تفهمه، أو أنها فهمته فهما خاطئاً فرفضته ولم تحسن استقباله، ولم تتقن تلقيه عن أهله، أو لم تتفاعل معه تفاعل الإنسان الغربي، أو غير ذلك من المعاذير، وإلا فهو من حيث طبيعته مشروع ناجح في ذاته لا مرية في ذلك، ونجاحه في أي زمان ومكان حتمية علمية لأنه مشروع علمي وعالمي، يؤكد ذلك نجاحه في اليابان، وكوريا، والهند، وسواها من بلدان العالم!

أما جريمة فشله أو إفشاله فهي مسؤولية العقل المسلم والثقافة الإسلامية التاريخية! فالتكوين العقلي للإنسان المسلم، وبنيته العقلية، وتركيبه النفسي، وتراثه الإسلامي، وتاريخية فكره، ولغويته، كل أولئك قد اشتركوا معاً في جريمة إفشال المشروع الحضاري التغريبي، ولذلك ينبغي أن يوضع العقل المسلم على طاولة التشريح الغربي لكشف علله واستئصال بعض أجزائه، وليبدأ بإعادة تشكيله من جديد. وهذا يقتضي قراءة ما يصل به من ثقافة ومعرفة ومصادر ونظم وتراث وتاريخ ولغة، وانتقاء المداخل التي يمكن من خلالها طرح الفكر الغربي والتحضير لقبوله، وذلك بإسقاط الأجزاء التي حالت دون قبول المشروع التغريبي، وأحبطت فاعليته وتأثيره فلم يؤت في المشرق الإسلامي ما آتاه من ثمار في الغرب النصراني، فلعل هذه المحاولة تنجح هذه المرة، ويستأنف المشروع التغريبي دورة تغريبية ناجحة في العالم الإسلامي... ولذلك تفرّغ كثير من الدارسين والباحثين الغربيين، ومن يدور في إطارهم الثقافي من المسلمين، إلى البحث في المداخل التي يمكن من خلالها التسلل إلى الفكر الإسلامي والاستشهاد من الفكر الإسلامي نفسه –خاصة في مجال الأدب والتاريخ والعلوم الإنسانية عامة– على سلامة الفكر الغربي وصحته.

وهؤلاء يظنون أن المستشرقين لم ينجحوا النجاح المطلوب فيما يحاولون هم النجاح فيه، فهم يعتبرون أن المستشرقين وقيادات الحملات التغريبية الأولى لم يحسنوا قراءة التراث الإسلامي، وأن آلياتهم ووسائلهم لم تكن من التقدم بحيث تمكّنهم من التحليل التكويني للعقل المسلم، ولا التحليل البنيوي له، ولذلك امتلأت الأسواق بكتابات عن التراث والمعاصره، وتكوين العقل العربي، وبينة العقل العربي، واغتيال العقل العربي، وتكوين الفكر الإسلامي، وتاريخية الفكر الإسلامي، ونحو ذلك من كتابات و أبحاث في هذا المجال. وفي

اعتقادنا إنّ المستشرقين نجحوا –إلى حد بعيد– في إيجاد مناهج تفكير ومناخ ثقافي في الجامعات والمعاهد والمدارس أنتج مثل هذا الاتجاه ورواده الذي يتابعون الرحلة من داخل العالم الإسلامي.

السبب الثاني: وقد يعتبر مكملاً للأول هو عدم التفات المستشرقين إلى أهمية توظيف المصطلحات الإسلامية والتراثية التوظيف المناسب، وإيجاد المداخل المطلوبة لنقل مفاهيم التغريبية إلى المسلمين. فإذا قدمت الاشتراكية مثلاً إلى الإنسان المسلم على أنها نظريات ماركس وأنجلز وأمثالهما، تردد العقل المسلم، بحكم تكوينه وبتأثير بنيته وميراثه الثقافي، في قبولها، ولكن يوم تقدم له النظرية نفسها بكل توابعها وبسائر ما فيها على أنها لم تخرج على فكر أبي ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وطروحات ابن خلدون، أو يمكن أن تندرج تحت فقه الإمام فلان أو فلان، فسوف يسارع المسلم إلى قبولها وتبينها.

ويوم تطرح له فكرة الانضمام إلى الحركة الاشتراكية العالمية مثلاً، على أنها نضال وجهاد لمصلحة الفقراء البائسين والمحرومين ضد المستغلين والمستعمرين فسوف يقبلها، خاصة إذا أكدنا له أن جذور هذه الدعوة التاريخية بدأت في الإسلام، وأن هناك حركات وأفكارا رفعت الشعارات نفسها، وبذلك تعاد قراءة حركات الرفض والخروج كحركة القرامطة والزنج من جديد، لتعطى بعداً مقصوداً في التاريخ الإسلامي، ولتلقى مجالاً للقبول، وكذلك عرض **الديمقراطية** على أنها الشورى **والجمهورية** على أنها الخلافة.

وعندما تدخل الأمة في هذا الضياع عن نسقها الثقافي الإسلامي ويمارس عليها التضليل الثقافي، ويقدم الفكر الغربي، بكل جذوره الإغريقية الشركية والصليبية، ومدارسه الداروينية والفرودية والماركسية والسارترية والاشتراكية والليبرالية، على أنه فكر الغزالي وابن رشد وابن سينا وابن خلدون، فسوف تجد مثل هذه الطروحات القبول عند العقل المسلم.

لذلك، نجد اليوم فريقاً من هؤلاء قد أنصرف إلى الدراسات المتعمقة والمتخصصة في التاريخ والتراث الإسلاميين، وبدأت عمليات ربط كثير من الطروحات الفكرية التي قد لا يجاوز عمر بعضها قرناً واحداً من الزمان بقضايا إسلامية، وبدأت تغزو الساحة الإسلامية مصطلحات ملفقة مثل: يسار إسلامي، ويمين إسلامي، وبدأ فرز الصحابة والتابعين إلى ليبراليين، وديمقراطيين، واشتراكيين... وهكذا.

وبدأت عملية إسقاط مفاهيم تراثية على بعض الأطروحات والأفكار الغربية الحديثة للحصول لها على المشروعية التي يحملها المصطلح، فتقدم مثل هذه الآراء على أنها **اجتهاد!** ويعتبر الخروج والرفض تجديداً! وقد يلبس التبذل ثياب الفن.

وقضية المفهومات والأفكار تعتبر القضية ذات الخطورة الأهم وتستحق البحث وحدها.

فماذا فعل المشروع الإسلامي؟

إن المشروع الإسلامي لم يعط البعد الفكري من الاهتمام ما يستحقه، وذلك من أسباب عجزه عن بلوغ الهدف، واستمرار الأمراض الفكرية الفتاكة مثل تحكم عقلية التقليد الجماعي والغفلة عن السنن، والتغافل عن عالمية الإسلام أو إساءة فهمها، كما أن المواجهة مع الخارج الإسلامي التي فرضت عليهم لم تدع لهم مجالاً لإعطاء القضية الفكرية المساحة المطلوبة من الاهتمام، وبعد أن تركت تلك المواجهة رصيداً هاماً من الفقه الميداني، وكشفت عن خطورة القضية الفكرية وأهميتها، من خلال النظر أيضاً في أسباب فشل أطروحات المشروع التغريبي، تظهر الضرورة الإسلامية الملحة إلى هذه الفروض، والضروريات الحضارية التي تستوجب طرح قضية: **إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة** في محاولة لاسترداك المشروع الإسلامي المطروح واستكماله. إن المشروع الفكري الثقافي يحاول معالجة الأسباب الذاتية التي أدت إلى إصابة المشروعات السابقة و إفقادها قدرتها على بلوغ الأبعاد المطلوبة، حيث إنه يأخذ بعين الاعتبار المنطلقات الإسلامية الأساسية والنظرة الشمولية وتحقيق التوازن والوسطية، وضبط النسب... و هذه القضايا بقدر ما هي ميزة للمشروع الفكري الثقافي المطروح، فإنها مسؤولية ضخمة لأننا نزعم إن هذا المشروع الوسط يتوقف علية مصير نهضة أمتنا وتقدمها في محاولتها لردم فجوة التخلف، واستئنافها دورة حضارية جديدة لا تقف عند إنقاذ الأمة الإسلامية نفسها، وإعادة بنائها واستئناف حياتها الإسلامية، بل تتجاوز ذلك إلى إنقاذ الإنسانية المعذبة المهددة بالفناء، واتخاذ الأمة موقع **الشهود الحضاري** الذي هو جوهر رسالتها، وهذا لا يعني بحال من الأحوال الاستغناء أو العدول أو القفز فوق رصيد المشروعات الفكرية والإصلاحية السابقة، بل لابد من تقويمها للإفادة من الجوانب الإيجابية فيها، والإفادة أيضاً من التجارب الميدانية للمشروعات الإسلامية

النهضوية المتنوعة.

ما الذي تستطيع "**إسلامية المعرفة**" أن تقدمه للصحوة وللأمة والعالم؟

إن هذا التساؤل مشروع، وهو مهم يستحق الإجابة. إن "**إسلامية المعرفة**" تحاول أن تقدم للصحوة وللأمة وللعالم "**القرآن الكريم المجيد**" باعتباره الكتاب الوحيد الذي يملك إنقاذ البشرية اليوم كلها، لا أمتنا – وحدها–:

"**فالقرآن العظيم وحده يملك التصور المنهجي والمعرفي**" البديل على مستوى كوني، غير أن حملة القرآن لم يعانوا بعد هذا المأزق المنهجي المعرفي، فالواقع الاقتصادي والاجتماعي والفكري أو مجمل الواقع الحضاري في الوسط من العالم ما بين المحيطين الأطلسي غرباً والهادي شرقاً لا زال يعيش في تراثه الفكري، وتسيطر عليه عقلية الثنائيات المتقابلة، وتخلفه الفكري والمعرفي يحولان بينه وبين القلق النفسي أو الفكري أن يخامرانه أو يجعلانه يحس بالحاجة إلى "**المنهجية أو المعرفية**"، والوسائط الكثيرة من تراثه في التفسير وعلوم القرآن وسواها تشكل مراجع ميسرة لا تسمح له بالإحساس بالحاجة إلى المنهجية المعرفية في فهم القرآن أو التعامل معه.

وأما أولئك المتعاملون مع الفكر والثقافة المعاصرة فإن طبيعة الفكر الغربي والثقافة الغربية قد علمتهم بأنها – وحدها– التي تفرز أزماتها وتضع بدائلها فلا تسمح بالاستيراد من خارج النسق الفكري والثقافي الغربيين.

وهنا يمكن أن نشير إلى سبب آخر من أسباب فشل بعض الداعين إلى الحداثة والمعاصرة، انطلاقاً من اتجاهات تيار "**المنظور الحضاري**"، ولو في إطار التجديد الإسلامي نفسه، وهو أن بنية واقعنا الإسلامي لم تتطور أو تتغير نوعياً، ولذلك فإن مظاهر الحداثة في عالمنا الإسلامي بقيت أشكالاً مستوردة كالأفكار تماماً، وليست نابعة من ذات التجربة التاريخية والحضارية لهذه البلدان: فالخطاب الفكري والإسلامي والاجتماعي السائد لا تعوزه **صفة المعاصرة** وان انطلق من التراث أو استدعاه، فهو معاصر في إطاره وشكله تراثي في مضمونه، ينبه أن الذهن الصائغ لهذا الخطاب لازال يعيش حالة التراث ومتلبساً بها، ومنفصلاً عن المستوى الفكري والمعرفي والمنهجي لعصره الذي ينتمي إليه في جسمه وأشيائه فحسب. وأن صاغة هذا الخطاب لم يعانوا ما عاناه الآخرون في صناعة الحضارة العالمية الراهنة، فإنهم يظنون أن بالإمكان الفصل بين الفكرة

والآلة لأنهم لم يرافقوا ولادات الحضارة العسيرة خلال فترات معاناة صنّاعها: التوليد من الآلة البخارية إلى الثورة الصناعية إلى التكنولوجية إلى الاتصالية، وكيف كانت عقولهم وأفكارهم تعاد صياغتها في كل مرحلة صياغة متجددة، بحيث يسير التدرج العقلي جنباً إلى جنب مع التطور الحضاري، فإذا بلغ السقف المعرفي للحضارة المعاصرة حالة **المنهجية والمعرفية** فإن أصحاب المعاناة في صناعة هذه الحضارة يستطيعون بسهولة ويسر أن يدركوا معنى **المنهجية والمعرفية** وضرورتهما، ومدى إمكان تأثيرهما في عمليات التجديد الفكري والمعرفي.

ولنتبيّن صدق هذه الدعوى نستطيع أن ننظر في تاريخ العلوم المعاصرة طبيعية أو إنسانية أو اجتماعية، وفلسفتها، خاصة فلسفة العلوم الطبيعية، لنتبين كيف كانت عمليات إعادة التشكيل العقلي والمعرفي تسير مع التشكيل الحضاري، وكيف كان التأثير المتبادل يجري بينهما حتى المأزق الأخير الذي دخلته الحضارة المعاصرة، حتى ليكاد المراقب أن يشعر أنهما، أي الحضارة المعاصرة وسقفها الفكري والمعرفي، دخلا المأزق معاً.

ولذلك تتعالى أصوات الاستغاثة التي تعلن فشل فكر الحداثة وما أدى إليه من تفكيك، وعجز فكر ما بعد **الحداثة** عن إحداث التركيب، بل انضمامه إلى فكر التفكيك كذلك، فإذا كان فكر الحداثة قد فك الدين والكون والطبيعة، فإن فكر **ما بعد الحداثة** قد فك الإنسان ذاته، ولا تزال عملية التفكيك مستمرة، وهنا يبدو واضحاً عمق الأزمة وعمق الإحساس بها، والبحث عن بديل منهجي كوني ليساعد الإنسان على تركيب ما فك. ونحن في مدرسة "**إسلامية المعرفة**" ندرك أن الأزمة عالمية، وندرك أنه لا مخرج منها إلا كتاب الله الخالد المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو –وحده– الذي يحمل في ثنايا سوره وآياته **المنهجية الكونية** القادرة على إعادة الصياغة الفلسفية لحضارة الإنسان المعاصرة. لكننا في الوقت ذاته ندرك أن القرآن الكريم بين أيدي الأمة التي لم تواكب العالم وهو يصنع الحضارة المعاصرة للأسف.

ولذلك فإنها لا تعاني من أزمة المأزق الحضاري إلا بمقدار ما ينعكس عليها من معاناة الآخرين، لكنها تعاني من أزمة التخلف المزدوج الفكري المعرفي والحضاري كذلك، فلا تستطيع أن تدرك عظمة القرآن المجيد على مستوى عصرها، كما لا تستطيع أن تكتشف الإمكانات الكامنة فيه، ولا تستطيع القيام بحسن تقديمه إلى

عالم اليوم وفي مستوى سقفه المعرفي والحضاري. والذين يدركون الأزمة –من الغربيين– ويبحثون لها عن حل لا يستطيعون أن يكتشفوا ما في القرآن من منهجية كونية، وحين يقاربون القرآن الكريم فإنهم يقاربونه باعتباره كتابا دينيا، وهم قد فككوا الدين منذ وقت طويل، ومنعوا أي اتصال بينه وبين العلم والمعرفة والمنهج، لذلك فإنهم يبحثون عن **المنهجية المعرفية الكونية البديلة** سالكين كل السبل الفلسفية المعروفة لديهم منقبين في تراث الإنسانية –كلها– إلا الإسلام، فإنهم لا يقاربونه إلا كما يقاربون أي خصم أو عدو أو غريم قديم.

إن الأمر يكاد يشبه ما انطوت عليه أراضينا من كنوز طبيعية، فإن المعادن التي طوت أراضينا عليها رمالها لم نكتشفها بأنفسنا، لتخلفنا، وبقيت كامنة حتى اكتشفها الآخرون بعد أن تقدموا وأدركوا ضرورتها لحضارتهم، ولا تزال مقدراتنا بأيديهم لم نستطع أن نتجاوز أزمتنا الحضارية، أو نتحول بما اكتشف في أراضينا إلى شريك حضاري مع الغير، بل لقد زادت تبعيتنا، وتراكم تراجعنا وتخلفنا. **ومنهجية القرآن المعرفية الكونية** كامنة فيه لا يسمح سقفنا المعرفي والحضاري لنا باكتشافها، وما نكتشفه منها سرعان ما يصادره تراث هائل متراكم عبر القرون من التفسير وعلوم القرآن التراثية ليعيد إنتاجه تراثاً يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فاعلاً أو متألقاً بحيث يُوجد دافعية حضارية. والآخرون يحول بينهم وبين القرآن المجيد إرث تاريخي متنوع مشتمل على إسرائيليات الماضي والحاضر، ومخزون الذاكرة التاريخية المعادي لكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، كما أن فترات الاستعمار والاستكبار والتعالي بالمركزية الأوربية أو الغربية أو البيضاء تركت كمّا هائلاً من المشكلات جددت كل عوامل التدابر والتعادي والصراع بينهم وبين أهل القرآن، لتضع مزيداً من الحجب بين الغرب المأزوم والقرآن الشافي، بل ها هو الغرب ممثلاً بقاعدته في قلب الوطن العربي: إسرائيل، وأجهزة ووسائل النظام الدولي الجديد تنظر إلى الإسلام والمسلمين في كل مكان –والقرآن ليس ببعيد عن هذه النظرة– بأنهم المهددون للحضارة الإنسانية المعاصرة، وصار القرآن يقرن بالإرهاب والتطرف والتهديد في الوقت الذي يسحقون حملته في كل مكان، وتطأ الدبابات رقابهم، ويحرض العالم –كله– على استئصالهم، بل إن تطبيع العلاقات في إطار **الشرق أوسطية** لا يمكن أن يتم إلا بعد استبعاد آيات معينة من القرآن الكريم عن التداول، يتقن الذين ألفوا تحريف الكلم عن مواضعه اختيارها ورصدها، لتفريغ ما في القرآن من قدرة وفاعلية ودفع المسلمين إلى قراءته **عضين** أعضاء مفرقة وأجزاء بحيث لا تكتشف منهجيته، ولا سنن

نظمه ولا قواعد أسلوبه، ليبقى المسلمون في تخلفهم ويبقى القرآن المجيد كتاباً لأمواتهم لا لأحيائهم ولآخرتهم لا لدنياهم.

ولو أدرك هؤلاء حجم الجريمة التي يمارسونها بحق البشرية وهم يمارسون عمليات حرمانها وحجبها عن القرآن الكريم، وتأخير البشرية عن اكتشافه، ومعالجة أمراضها به لقتلوا أنفسهم – فذلك خير لهم وأجدى على البشرية، لأنه قد يقلل شيئاً من الحواجز بين القرآن المجيد والبشرية المعذبة.

إن "**إسلامية المعرفة**" تحاول أن تقوم بمهمة مزدوجة في غاية الثقل والتعقيد، فهي تعمل على القضاء على حالة هجر المسلمين للقرآن الكريم، و إيجاد الوعي لدى الأمة المسلمة بخصائصه المنهجية والمعرفية، لتتعلم كيف تقرؤه على مستوى عصرها، وكيف تجمع بين قراءته وقراءة الكون لتحافظ على نفسها وكيانها من عمليات التذويب، التي تمارسها المركزية الغربية، وهي تحاول أن تعيد تفصيل وبناء العالم من جديد على مستوى رؤيتها وقبضتها، لأن "**إسلامية المعرفة**" تدرك أن من غير الممكن المحافظة على أمة القرآن بمنطق ماضوي سكوني أمام محاولات استحواذ المركز الدولي الغربي المهيمن، الذي يرى في النسق المعرفي الإسلامي أو بقاياه نقيضاً لنسق التطور الحضاري الوضعي، القائم على تركيز فائض القيمة لدى الطبقات المهيمنة، والهيمنة على قوة عمل الآخرين ومواردهم وتسخيرها لصالح المركز. ولذلك فهو يحاول بكل قواه محاصرة الإسلام وتذويبه لو استطاع؛ فأية محاولة لتطبيق الشريعة وتمثل –في نظره– عدواناً على الحضارة الإنسانية المعاصرة يجب أن تمنع بكل الوسائل بما فيها الانقلابات العسكرية والثورات المسلحة.

وكل مؤازرة للعمل الإسلامي بأي وجه من الوجوه تعتبر تعزيزاً للإرهاب ومؤازرة للتطرف!! ولذلك لا بد من تجفيف منابع العمل الإسلامي، وسد أي منفذ من المنافذ التي يمكن للإسلام بأي معنى وبأي وجه أن يتنفس منه!

وفي ظل هذه الهجمة الظالمة لم يعد أولئك قادرين على التفريق بين متطرف ومعتدل، مستقيم أو منحرف. فالمعركة تدور حتى على مستوى الاسم والشكل والصورة، فكل ما يمت إلى الإسلام بصلة يجب أن يباد ويدمر، فهو يضرب من يسميه بالمتطرف فإذا انتصر له، أو أحتج على ما جرى له من وصف بنفسه

بالمعتدل، صار ذلك المعتدل متطرفاً كذلك يستحق أن يبطش به، لأن الهدف البعيد أن لا يبقى على ظهرها من المسلمين ديار، وأن لا تبقى للإسلام أية آثار.

و"**إسلامية المعرفة**" إذ تخوض معركتها في الداخل الإسلامي لتحقيق ما أشرنا إليه، تحاول –في الوقت ذاته– أن تعمل على صياغة خطاب الإسلام العالمي، وتحاول أن تساعد العالم المأزوم على اكتشاف علاجه ودوائه وشفائه بالقرآن الكريم ومنهجيته المعرفية، وأن تعمل على فك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري وخلفياته الفلسفية الوضعية، لتتمكن البشرية من إعادة الاتصال بين العلوم والمعرفة والقيم، وتوظيف العلوم والمعارف التي بلغتها البشرية في منهجية معرفية إسلامية تؤدي إلى أسلمة الإحالات الفلسفية للنظريات العلمية نافية عنها البعد الوضعي، معيدة صياغتها في إطار بعدها الكوني الذي يشتمل على الغائية الإلهية في الكون والحياة والحركة.

هنا تبدو واضحة أهمية وضرورة "**إسلامية المعرفة**" لا على المستوى الإسلامي –وحده– بل على المستوى العالمي كله. وهذا يوضح لم قامت هذه القضية المنهجية المعرفية على دعائمها الستة وهي:

1) بناء النظام المعرفي الإسلامي المعاصر.
2) إعادة تشكيل وبناء المنهجية المعرفية القرآنية.
3) بناء مناهج التعامل مع القرآن الكريم بوصفه مصدراً للفكر والمعرفة والحضارة.
4) بناء مناهج التعامل مع السنة النبوية المطهرة بوصفها مصدراً للفكر والمعرفة والحضارة.
5) بناء مناهج التعامل مع التراث الإسلامي لتجاوز فترات التقليد والانقطاع فيه.
6) بناء مناهج التعامل مع التراث الإنساني المعاصر للتواصل مع الفكر والحضارة الإنسانتين.

إن أهمية هذه القضية، بل ضرورتها تجعل الأساتذة والعلماء والمفكرين وطلاب الدراسات العليا خاصة أمام واجباتهم الرسالية، وفي مواجهة الدور الخطير الذي عليهم أن يضطلعوا به، وتجعل من البحث العلمي والمعرفي رسالة، وتجعل من الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمي قواعد ومنطلقات نهضة حقيقية قرآنية، تستطيع أن تخرج عالم اليوم بالقرآن من الظلمات إلى النور وتضع البشرية من جديد على صراط العزيز الحميد ﴿اللَّهِ

الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (إبراهيم:2-3).